أسئلة الإنسان واندهاشاته

عبد الحكيم حيدر

هل كل ما كتب وما سوف يُكتب لا يخرج عن ذلك الحيز التأملي والحيرة في الكون ابتغاء الخروج بأي تصوّر عن الحياة في شكل لوحة، أو نغمة موسيقية، أو قصة، أو قصيدة، أو خرّافية، أو رواية، أو عمل مسرحي، أو فيلم سينمائي، أو بحث علمي، كلها تعبر عن ذلك السؤال الذي لا يشفي غليلاً، بحثاً عن فرح إيجاد المعنى أو تلامسه أو غرور الإمساك به في ذلك الكون الذي ما زال يحيّرنا باندهاشاته وفتوحاته أيضاً بعد تعب الأسئلة. وتأتي أسئلة أخرى أكثر حيرةً من الأولى حول الحروب وغاياتها وتبريرات الزعماء، والأحزاب، وصناعات الحروب بأسلحتها الفتّاكة، سواء كانت من أجل تعزيز سلطة اقتربت من الزوال أو من أجل حبٍّ إمبراطوري مستحيل أو سبي أو فاتة أو كبحت عن زعامة متوهّمة تسويقا للإمبراطورية أو العائلة يقف الكهنة وراء صناعة أسبابها ومبرّراتها ودفع الجموع دفعاً وراء تلك الأوهام المصنوعة بحرفية، وقد تدخل القداسة على خط الحروب وفي القلب من الصفوف، كي يكون الدم طاهراً، وتستمرّ الصناعة قروناً فخورة بالقتل من الطرفين. دائماً هناك في الكون وخلف الأفق للإنسان غمامة، غمامة تحرّك خطاه وأطماعه، غمامة تخايله، كي يجعل من الدم مسوّغاً لاختام مُلكه المتوهم، غمامة مثل تلك أراها الآن تتشكّل على مهل، ثم تذوب أو ترحل، غمامة مثل حرب ما بين بلدَيْن، أو مثل تلك المرأة التي هجرت بلا سبب، غمامة مثل تلك الجبل الذي تظنّ أنه يرحل في الليل بهمومه عنّا وممّا رغم أنف تراه ثابتا، غمامة تمشي من بعيد في الصحراء، مثل تلك الجمل البعيد الذي يمشي هناك تائهاً بعد ما كره صاحبُه وشرّد، بعد ما احتمل كثيراً من أذاه وصبر.

إلى متى يصبر الإنسان ويتأمل حاله مندهشاً، حتى وهو يبحث عن رزقه، أو سهره، أو نجمة أو هلال، أو عيد، أو محصول، أو محبّة لا تطارح قلبه أبداً.

هذا الإنسان الذي يعرف جيداً أنه عابر مثل أي غمامةٍ سوف ترحل، لأن الحركة مكتوبة عليها، مثل تلك الشمس هي الأخرى، والتي ترحل دائماً، والقمر كذلك الذي يكتمل ويختفي، شمسٌ هناك ينتظرها غيرُنا بعد ما رحلت عنّا، شمسٌ يحتاجها المرضى هناك، وتنتظرها العصافير وهي في برودة أعشاشها ليلاً، شمسٌ لغيرنا ولن تكون معنا ومن أجلنا طوال النهار وحدنا، شمسٌ تسعد غيرنا كما أسعدتنا، كي تنبت ورود غيرنا وأزهارهم، وتدخل عنابر مستشفيات غيرنا وسجون غيرنا وتحت أجنحة حمام غير حمامنا، شمس مثل التي كانت، هنا، معنا ووَدّعتنا من دقيقة، شمس كانت هنا تطيب على أحزان نهارنا، وراحت الآن إلى أحزان غيرنا ببساطة، كما أن هذا البحر كله ليس لنا وحدنا، فهناك آخرون وراءه غيرنا، حمر وصفر وسود وبيض، ولهم أيضاً انتظاراتهم واندهاشاتهم أمام قمرهم وشمسهم، ولهم مرضاهم وغرقهم وصلواتهم ورداءاتهم ودموعهم وأحزانهم أيضاً، لهم الحقّ في تلك الشمس وفي النجوم وفي القمر والأزهار مثلنا، فما هذا الغرور الذي نبت للأسف، رغم كل الفلسفات، تحت جلودنا؟

شمسٌ ذاهبة إلى أحواض نعناع غيرنا وإلى أشجار زيتون وليمون غيرنا، وإلى أعناب غيرنا، وإلى صوامع أقماح غيرنا، وإلى بساتين غيرنا، وإلى ثعابين غيرنا.

شمس لذلك العائد من غربة بلا سبب، غربة عمل، أو غربة سجن، أو غربة اعتقال، أو غربة جُرح، أو غربة بحثٍ عن رزقٍ تعثّر، أو رزقٍ انعدم، أو غربة ضياع وطن كامل، أو ضياع أولاد وضياع بيت. هذه الشمس للجميع كما الدم، كما الميلاد، كما البصر للعين، كما الملحُ للبحر، كما السكّر في العنب، شمسٌ هناك تدخل في روح الكون ونسيجه، حتى في عود الغاب الذي يلمسه ذلك الفلاح أمام حقله وينفخ فيه، فيكون نغماً وأغنيةً يغنّيها حسن أو حسين أو نعناعة، وتصير سامراً للناس بجوار الأحجار والبوص والقصب والحوانط القديمة.

الشمس لغيرنا والطين أيضا لغيرنا وكذلك الأسباب.

ننحتُ كلنا من قديم الزمان في ذلك الكون، ونحاول أن نجعله جميلاً لن سوف يأتي بعدنا، كما يقال، نُبحث دائما كمساكين عن المعنى، والمعنى دائما يراوغ، علّنا نحن الذين نراوغ المعنى، كي نطمسه، أو نغرقه في البحر، أو نقتله مع القتلى. وفي الصباح، نشيّد دور العبادة على أشيك ما تكون ونعلق بها الثريّات، كي تكون شاهدة على نسيان الدم، وعلى حسن الظافة والياقة والأدب.

ثعالب في العنب تتوهّم صالح الأعمال بجوار أكتاف الكهنة.

إسرائيل قاتلاً مأجوراً

حلمي الأسمر

«القاتل المأجور» مهنة معروفة في عالم الأفراد والجماعات، حيث يمتهن بعضهم «الموت» مُقابل المال، في خِضَم عالم يعيش صراعاتٍ لا تنتهي، ودوافع خبيثة تُحرّك نفوساً مريضة لارتكاب أفظع الجرائم. ومن هذه الجرائم مهنةُ القاتل المأجور، حيث يُصبح الموتُ سلعةً تُباعُ وتُشترى مقابل المال والمنافع المختلفة.

القاتلُ المأجورُ شخصٌ محترفٌ يُنفّذُ عمليات الاغتيال مقابل مبلغ مُتفق عليه، أو منافع معيّنة. وهو غالبًا ما يتمتّعُ بمهاراتٍ عاليةٍ في القتال واستخدام الأسلحة، ويتمتّعُ بقدرٍ كبير من السرّية والقدرة على التخطيط والتنفيذ المُحكم، إضافة إلى تمتّعه بعقلية إجرامية وانعدام الإحساس الإنساني.

تتنوعُ دوافعُ القتل المأجور وتختلفُ باختلاف الظروف والأشخاص المتورطين، ومنها: الثأرُ والانتقام؛ قد يلجأ أشخاصٌ إلى القتل المأجور من أجل الثأر لمقتل أحد أحبائهم أو الانتقام من شخص أساءَ إليهم. ويُعدّ المال الدافعُ الأساسيُّ لمعظم جرائم القتل المأجور. وقد تلجأ المنظماتُ الإجراميةُ أو العصاباتُ إلى القتل المأجور للتخلّص من منافسيها أو من شهودِ مُهمّتِهِن. وقد تُستخدمُ جرائمُ القتل المأجور كأداةٍ لتصفية الخصوم السياسيين أو زعزعةِ الاستقرار في بلدٍ ما، وربما احتلال بلد ما أيضا والسيطرة على شعبه!

يتبعُ القاتلُ المأجورُ خطواتٍ مُحددةً لتنفيذِ عملياته، منها التواصلُ مع المُوكل، ويجري بشكلٍ سريّ، بشكلٍ مباشرٍ أو من خلال وسيط. ويجمع القاتلُ المعلوماتِ الكافيةَ عن الهدف، مثل مكان إقامتِه وروتينِه اليومي وعلاقاتِه ثم يضعُ خطةً مُحكمةً لتنفيذِ العملية، مع مراعاةِ جميع التفاصيلِ المُمكنة لتجنّبِ الوقوعِ في قبضةِ العدالة. ينفّذُ القاتلُ العمليةَ وفقًا للخطةِ المُتفقِ عليها، مستخدمًا مهاراته وخبرته في القتل وغالبا بمعونة مباشرة ممن كلفه بهذه المهمة القذرة. ويُحاولُ القاتلُ التخلّصَ من جميعِ الأدلة التي قد تربطهُ بالجريمة، مثل سلاح الجريمةِ أو بصماتِ الأصابع.

تُخلّفُ جرائمُ القتلِ المأجورِ آثارًا سلبيةً على المجتمع، منها: انتشارُ الخوفِ وانعدامِ الأمن، وتُصبحُ الحياةُ مُهدّدةً في ظلِّ انتشارِ مثلِ هذه الجرائم، ما يُؤدّي إلى انتشارِ الخوفِ وانعدامِ الأمنِ بينَ أفرادِ المجتمع، ناهيك عن فقدانِ الثقةِ بالقانون، ما قد يُؤدّي إلى انتشارِ الفوضى والعنفِ. كما تُساهمُ جرائمُ القتلِ المأجورِ في تعزيزِ ثقافةِ الموتِ والعنفِ في المجتمع، ما قد يُؤثّرُ على استقرارِه وتنميته.

هذا كله في عالم الأفراد أو الجماعات أو قل العصابات، فكيف هو الحال حين تمتهن دولةٌ ما مهنة «القاتل المأجور»؟ ... من الناحية القانونية، لا يُسمح للدول بالعمل كقتلة مأجورين. ينصّ القانون الدولي على مبدأ عدم التدخّل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، ويحظر استخدام القوة العسكرية لحل النزاعات. كما يعد القتل جريمةً خطيرة في كل العالم، بغض النظر عن هوية القاتل أو الدافع وراءه. وعليه، فإنّ قتل دولة فردياً أو مجموعة من الأفراد مقابل المال أو أي منفعة عامة يُعدّ انتهاكًا صريحًا للقانون الدولي، وقد يُعرّض تلك الدولة لعقوبات دولية (إن لم تجد غطاء دوليا وحماية في مجلس الأمن والمؤسّسات القانونية الدولية)، بما في ذلك المحاكمة في محكمة الجنايات الدولية. بالإضافة إلى ذلك، لدور الدولة كقاتل مأجور تداعيات أخلاقية عميقة، فالدول ملزمة بحماية مواطنيها واحترام حقوق الإنسان، بينما يُعدّ القتل انتهاكًا صارخًا لهذه الحقوق. ويُمكن أن يُؤدّي إلى عمل الدولة قاتلاً مأجوراً إلى تقويض ثقة المواطنين في حكوماتهم، وإضعاف سيادة القانون، وإشاعة بيئة من الخوف والعنف.

وهناك أمثلة عديدة على الدول التي تورّطت في عمليات قتل مأجورة. ومن ذلك دعم الولايات المتحدة فرق الموت في أميركا الوسطى في الثمانينيات، حيث دعمت حكومات ودولاً معادية للشيوعية، بما في ذلك في السلفادور وغواتيمالا، بتقديم المساعدات العسكرية والمالية. وتورّطت بعض هذه الحكومات في عمليات قتل مأجورة استهدفت المعارضين السياسيين ونشطاء حقوق الإنسان.

وفي عام 2020، اغتيل قائد فيلق القدس الإيراني قاسم سليماني في غارة جوية أميركية في العراق. اتهمت إيران الولايات المتحدة بالعمل كقاتل مأجور لإسرائيل، وهدّدت بالانتقام، وقد فعلت بعد نحو أربعة أعوام، حينما شنت إيران هجمتها الفريدة بطائرات مسيّرة وصواريخ بالستية على إسرائيل، ومن المفارقات هنا اتهام إيران الولايات المتحدة بأنها «قاتل مأجور» في وقت توظف فيه الأخيرة ودول غربية في فلكها إسرائيل للقيام بمهمّة القاتل المأجور. ويمكن إسقاط هذا المفهوم على مجمل الجرائم التي ارتكبها الكيان سواء في فلسطين أو في بقية دول المواجهة أو ما كانت تسمّى دول الطوق، حيث يؤدّي الكيان، نيابة عن أميركا والغرب وبتمويلهما، مهمّة «حماية مصالح الغرب»، وهو تعبير يستوعب طيفا هائلا من العناوين، ابتداء من تكريس الفرقة بين أبناء العروبة، ومنع إقامة وحدة عربية عبر إنهاك أقطار العرب وجمهورهم بصراعات بينية وإشعال نعرات بغيضة، وانتهاء بسحق أي قدرات عسكرية معتبرة قد تهدّد تلك المصالح (ضرب المفاعل النووي العراقي، شنّ حرب اغتيالات ممتدة ضد رموز المقاومة والعلماء العرب النابهين). ويتضمن هذا بالطبع قتل روح المقاومة وشطب آيات الجهاد من المناهج. والأهم من هذا كله، وفي مقدّمته إخضاع أبناء الشعب الفلسطيني وتفكيك مقاومته، حركة حماس أو غيرها، المهم أن لا تكون هناك مقاومة أصلا (باعتبار هذا الشعب صاحب الأرض التي يقوم عليها مشروع الدولة/ القاتل المأجور). وفي الأثناء، يوفر من يوظف هذا القاتل كل ما يلزمه من حماية دولية (فيتو دائم في مجلس الأمن) وتمويل بأدوات القتال والفتك.

> ما يجري في غزّة اليوم هو التعبير الأكثر خشونة عن الدور الذي تقوم به إسرائيل قاتلاً ماجوراً، في محاولة لإطفاء جذوة المقاومة

الجديد في المشهد أن الدولة/ القاتل المأجور تهشّم وجهَه، ومسحت بكرامته الأرض، وبدا، بعد أكثر من تمويل استغرق نحو مائة عام، كأنه يسير إلى هاوية سحيقة (وفق تعبير الجنرال المتقاعد إسحق بريك: تُشبّه إسرائيل الآن سفينة تائهة وسط البحر في أثناء عاصفة شديدة قد تُغرقها في القاع). أو ربما ينتحر عبر خوض معركة امتدّت نحو مائتي يوم، مع من حاول سحقهم وقتلهم وإخضاعهم، وهم في الأصل المكلف بضبطهم من الحضور على سطح الأرض، وما يجري في غزّة اليوم هو التعبير الأكثر خشونة عن الدور الذي تقوم به إسرائيل قاتلاً مأجوراً. في محاولة لإطفاء جذوة المقاومة، ويبدو أن فشل القاتل الصارخ في هذه المهمّة هي بداية إنهاء هذا الدور، وتسريحه من وظيفته ممّن يموّله ويدفع له لقاء مهامّه الإجرامية.

(كاتب من الأردن)

ذاكرة الحرب الأهلية اللبنانية بين الكليشيه والنسيان

دلال البزري

كلما حلّت الذكرى، أو وقع ما يذكّر بها، طلعت الأناشيد بحقّ تاريخها. إنها الحرب الأهلية اللبنانية، التي اندلعت منذ حوالي نصف قرن وانتهت منذ ثلاثة عقود. ... من وقتها، صرنا على موعد مع كليشيهات من نوع: الحرب كانت هي الفتنة. الفتنة، احذروا الفتنة. «تنذّكر وما تنعاد». ... يليها وصف دقيق، مُعادٌ للمرّة الألف لأهوالها، لعمليات الخطف والذبح والتهجير والحرق والتدمير؛ وإجماع كل «القيادات» على دَمِها، واستنتاجات سياسية مكرّرة، تحييها اللحظة والموازين؛ من قبيل ضرورة التفاهم والحوار، ضرورة إحياء مؤسّسات الحوار وإشراك المرجعيات الإسلامية والمسيحية، ضرورة التوافق، والميثاق والتسوية... وإجماع على رفع الصوت ضد عودتها. جلْهم، وفي سبيل إحراج خصومهم، يتذكّرون الدولة بهذه «المناسبة». يتآسَفون على نخرها، يوزّعون المسؤوليات، هنا وهناك بحسب درجات العداوة، ويعودون إلى عريضة سالمين. وحتى الذين يقودون عملية النخر هذه، أو يساهمون بها من منطق «سلطة الشديد القوي في الميدان»، أو من منطق الردّ على هذا الشديد القوي، ينشدُون النغمة ذاتها. سواء حلّت الذكرى، في الثالث عشر من نيسان/ إبريل، أو وقعت «فتنةٌ» من تلك الفتن المتنقّلة على امتداد الأراضي اللبنانية. الطائفيون من بينهم أقواهم لساناً وأشدّهم حماسة لإدانة هذه الفتنة، والتذكير ثم التذكير بلا كلل «إياكم والحرب الأهلية» و«إياكم والفتنة».

والطريف أن التوقّ إلى «السلم والسلام»، من قبيل تعالوا نحبّ بعضنا بعضا، نصلّي أو ننشد معا، نعيّد بعضنا بعضا، نمتدح أنبياء وقدّيسي بعضنا بعضا... أصحابها من الرابضين على قلوبنا منذ نهاية الحرب بحسَنة نظام طائفي كان من أسس هذه الحرب وقواعدها. ولم يعفرها إلى عقاعدهم الرّعامية، إلا بفضل ذاك القانون الانتخابي المُفصّل على الطوائف، الذي يضعها في منزلة العداوة المباشرة أو الملطفة أو المغلفة تجاه الطوائف الأخرى. أدواتهم التعبئة الطائفية أو المذهبية، الفجّة أو اللطيفة. وهي تعبئة تقوم على اللسان وعلى ميزان الحصص بين أبناء الطوائف، في مناحي حياتهم المصيرية منها كما التفصيلية.

أي أننا ننسى «دروس» الحرب الأهلية، التي لا نذكّر غيرها عندما تحضُر ملائكة الصراع. وفي الآن عينه، نقيم على فوّهة بركان طائفي: في قلب حرب أهلية «باردة» منذ ثلاثة عقود، بأدوات الحرب الأهلية «الساخنة» التي وقعت منذ نصف قرن. ومن دون كرَ وفرّ، من دون سفك دماء ... إلا بالتقسيط.

ما الذي يجعل تذكّر الحرب الأهلية بهذه الطريقة هو أفعال النسيان الحقيقي؟ طريقة اللازمات الفارغة، التي تميت الذاكرة، بدل أن تحييها؟ ... نهاية الحرب أولاً، وقد أفضت إلى حكم زعماء الميليشيات التي خاضت الحرب وارتكبت أعمال القتل والتهجير والحصار. الاتفاق الذي نفذت بعض بنوده، نزع سلاحها، وأصعدها إلى الحكم، مع استثناء بقاء سلاح حزب الله على أساس «مقاومة إسرائيل». أي أن زعماء الحرب لم يُحاسبوا على جرائمهم، إلا واحداً، هو سمير جعجع (زعيم حزب القوات اللبنانية)، المسيحي، الذي دفع ثمن رفضه الوصاية السورية، بالسجن 11 سنة لجريمة (لم يرتكبها؟)، وكانت أقل سفكاً للدماء من جرائمه في أثناء الحرب.

لاقى مبدأ عدم المحاسبة الذي دشّن نهاية الحرب صدىً شعبياً قوياً. يريد كل الناس أن ينسوا، أن يستأنفوا عيشهم الطبيعي. لم يصدّقوا أن الحرب انتهت، ومعها مفرداتها وبومبائاتها وقتلاها ومخطوفوها ومختفوها. الباحثون، الأكاديميون، المحلّلون... يريدون ردم هوّة النسيان هذه. ينهمكون في تاريخ لبنان الحديث؛ وغالباً على أساس نظري «جديد». ولكن هذا الأساس لا يمنعهم من الاختلاف، على تاريخ هذه الحرب. وبالتالي، على تاريخ نشأة لبنان، فهم لا يقرأون التاريخ في الكتاب ذاته.

ويكون البحث في وقائع هذه الحرب نوعاً من إحياء لفتنة، لا يجدّدها إلا تشابه معارك الطوائف في عملية المحاصصة الكبرى على خيرات الدولة... ولا تعني «الخيرات» هنا إلا متساقطات «دعم خارجي» يتسرّب من بين أصابع أصحاب الموقع أو الهيبة أو السطوة الأشد. ولكن الموضوع لا يتوقف عند ذلك: سلوك القادة يشجّع على النسيان واقتصار التذكّر على كلمات فارغة، أو تحريضية.

خذ مثلاً من بين الأمثلة: ما وصف في السنة الأخيرة من الحرب أنه «حمّام دم» بين حزب الله وأمل (شيعية)، لا أحد يذكره. أو «حمّام» آخر، بحقّ ميليشيات «الأحرار» وعلى يد «الكتائب» (مسيحية) في عملية الصفرا الحسروانية...

إليكم النافر منها، المرئي، الذي يجب أن لا يُنسى، خدمة للذاكرة المسكينة... وليد جنبلاط: إثر اغتيال والده على يد أفراد من حاجز عسكري سوري نصبوا له كميناً، قرب بلدته المختارة، يزور حافظ الأسد، بعيد هذا الاغتيال، ويشكّل تحالفا مع «سوريا البعث»، حتى وفاة هذا الأخير. وجنبلاط نفسه الذي قاد حملة اتهام الأسد الابن باغتيال رفيق الحريري يزور ثانية دمشق، ويشيد بمواقف بشّار الرامية إلى «تعزيز الاستقرار في لبنان»... سعد الحريري، ابن المغدور رفيق الحريري بامر من بشار الأسد، كما اتّهمه هو أيضا... يقوم بزيارة «تاريخية» إلى دمشق، بعد أربع سنوات على اغتيال والده. يبحث هناك «كيفية تجاوز الآثار السلبية التي شابت العلاقات بين البلدين»، و«مرحلة جديدة في العلاقات» ... إلخ.

مقاتلان خلال الحرب الأهلية اللبنانية، بيروت الغربية، 1985 (فيلك إسماعيل/فرانس برس)

> نحن بإزاء عمليات غفران بالجملة لجميع أنواع القتلة، أكانوا زعماء كباراً أم مواطنين بسطاء. ولكي نستمر على قيد الحياة علينا النسيان

نحن بإزاء عمليات غفران بالجملة لجميع أنواع القتلة، أكانوا زعماء كبارا أم مواطنين بسطاء. ولكي نستمر على قيد الحياة علينا النسيان، كان شيئا لم يكن، بالأمس، ولن يكون اليوم. نساء، فتنمّكن من الاستمرار على قيد الحياة، ولا نصاب بداء الذاكرة المطعونة يوميا بسلاح هذا الغفران. وبما أن هذه الحالة أو هذه العملية لها أثر بالغ على مصيرنا، على مجرى حياتنا، على أدق تفاصيل يومياتنا، وكلها سلبيّة كلها تخريبية... ماذا نفعل لكي نستمر؟

نتكتّف. والمَلَكة الأساسية للتكتّف، بعد المرونة والخيال والإرادة... هي النسيان. فإذا تمتّعتْ بكل المواصفات الثلاث هذه، وبقيت تتذكّر، ستكون وحيدا، معذّبا، يعتقد من حولك انك أصبتَ بالجنون. لا لأنك تتذكّر، أو تحزن... إنما لأنك لا تفهم كيف أن الذي يسكن عقلك الآن، وقلبك، وكيانك وجسدك، وبكوابيسك وأحلامك... لا تجد له الكلمات. وإن اصرّيت عليها ووجدتها، تكون هامشيا، تُعابر بعشوائية، ذائبة، تائهة، وسط بحر من التعقّل والتدبّر والانسجام مع الظروف.

الذي حصل أخيراً: خطف واغتيال مسؤول حزبي طائفي على يد عصابة سورية، فاندلع أعمال عنف تجاه أي سوري لاجئ في البلاد، وبدعم من رسميين، وزراء ورجال دين، ليسوا بالضرورة من أعضاء هذا الحزب، نضع خلفنا كل الذي خرّب ديار هؤلاء وأخرجهم من بلادهم، ونقبر «الفتنة» بين اللبنانيين بالانقضاض عليهم. فيكون نسياننا مزدوجا هذه المرّة، يتشكّل من طبقتين عريضتين: واحدة لبنانية وأخرى سورية. الأولى أقدم من الثانية. والاثنتان محرومتان من التذكّر.

ولا نهمل هنا كل الأعمال الأدبية والفنية التي استلهمت الحرب الأهلية. ولكنها، رغم عمقها وجمالية بعضها، بقيت قليلة، كئيبة، وحيدة، لا تفاعل بينها وبين محيطها، لا فنيا ولا سياسيا. لم تتسبّب بانتفاضة الذاكرة، أو بتسلّلها إلى الأفراد، المكابدون من أجل بقائهم، مجرّد البقاء.

الآن: الأسئلة ما زالت مطروحة. كيف نتذكّر؟ من نتذكّر؟ متى نتذكّر؟ ثم، هل يكفي أن نتذكّر؟

(كاتبة لبنانية)

الأمم المتحدة في ليبيا

الفيتوري شعيب

جاءت الإحاطة الدورية لبعثة الأمم المتحدة في ليبيا 16 إبريل/ نيسان الجاري على غير العادة في المضمون والسياقات التي تلتها، حيث كانت تحمل من الشدّة في التعابير ما تحمل، وتوجيه الإشكالات، وتحميل المسؤوليات لكل الأطراف السياسية الليبية، بل وصل بها التعبير صراحة بأن الأطياف السياسي خرجت من المسؤولية إلى «توقّعات غير معقولة»، بل وحتى «اللامبالاة تجاه مصالح الشعب الليبي»، الأمر الذي «يعوق جهود حل الوضع الراهن، ويهدّد بالمزيد من عدم الاستقرار وانعدام الأمن في ليبيا وفي المنطقة»، لتكون المحصلة المسببة لذلك «أنانية القادة الحاليين»، ناهيك عن التدخل الدولي الذي معه «تشتد هواجس عامة الشعب إزاء تضاؤل التوافق الدولي تجاه ليبيا، جزّاء تحول بلدهم إلى ساحة لعب يحتدم على أرضها التنافس بين الأطراف الإقليمية والدولية المدفوع بمصالح جيوسياسية وسياسية واقتصادية، بالإضافة إلى التنافس الذي تجاوز حدود ليبيا وطال الجوار. ونتيجة التكالب المتجدّد فيما بين اللاعبين، سواء داخل البلاد أو خارجها على ليبيا وموقعها ومواردها الزاخرة «زادت صعوبة الوصول إلى حل»، كما كان الوصف للبعثة الأممية في مجلس الأمن. وعند النظر إلى هذه الإحاطة، نجد أنها تحمل في طياتها أبعاداً حقيقية على الواقع السياسي الليبي تارّة، وأبعاداً أخرى بعيدة عن الواقع، كما أنها تُخفي فشل البعثة في وساطتها تارة أخرى، حيث إن الفشل في تجديد السلطات التشريعية في البلاد، وإن كان شأناً داخلياً محضاً، ويجب أن يكون كذلك، إلا أن الأبعاد الدولية والإقليمية كان لها دور في إفشاله بطريقة أو أخرى، لعل أقل مسؤوليات الإفشال عدم تسمية المعرقلين لتجديدها عند كل محاولة أو إجراء يُقرب من ذلك، كما أن البعثة خاضت لشهور عدة متتالية في مبادرة غير واقعية، وما زالت تخوض فيها، وإن كان أسدل الستار عليها بطريقة غير مباشرة في هذه الإحاطة، بل وحتى ما كان قبلها. عموماً، تحمل هذه الإحاطة، في طياتها، بعض الإيجابيات، لعلّ أقلها تسمية الأشياء بمسمّياتها، «المعرقلة، الإنانية، المصلحية»، وذلك كله مقرون بالرغبة العنيدة في تأجيل تجديد الأجسام الحالية المتحكّمة في المشهد منذ سنوات. وفي المقابل، لم تكن فرضيات الحل والبات هذا الانسداد السياسي حاضرة في إحاطة البعثة، ولا معطيات تعاملها مع المشهد الداخلي الليبي منذ سنوات، إذ إنها تدور في فلك ضيق، تتجاذبه مصالح الدول الأجنبية، بل وحتى الإقليمية، المتداخلة في الشأن الليبي، الأمر الذي يقود إلى نتيجة محصلة واحدة، وإن اختلف السلبي، والنخب الفاعلة فيه، والقاعدة الشعبية التي يبدها التغيير الحقيقي، أن تقود التغيير بالدرجة الأولى، كما أن أي حل للخلاف السياسي، لا بد أن يكون منبثقاً من الداخل، وأن يتبنّاه تيار وطني ينتشل البلاد من هذا الوضع داخلياً، وأن يحجم المتدخل فيه، خصوصاً بعد أن أصبح محلّ تندّر بعد مرور أسبوعين على استهداف مبانيه الدبلوماسية في دمشق وقتل قادة عسكريين منه، دون أن ينتج ذلك أي رد فعل.

في المقابل، كان خصوم إيران، ومن يرونها تهديداً إقليمياً، يأملون في أن تحصل هذه الضربة، التي كان يمكن أن تدخلها في مواجهة دولية مباشرة، لإشغالها في صراع معقّد قادر على عرقلة محاولاتها التمدّد والسيطرة على المنطقة.

وكان هناك متحمّسون كثيرون، متأثرون بالعدوان وبالجرائم الإسرائيلية، التي تمرّ من دون عقاب في قطاع غزة ومستمرّة تحت نظر العالم. وكان أولئك يرون أن مثل هذه الضربة، وبغض النظر عمن وراءها، يمكن أن تحقّق نوعاً من الثأر، الذي قد يمثل ردّاً متواضعاً على مقتل عشرات الآف من المدنيين وتهديد حياة أكثر من مليون شخص بالجوع أو بفقدان العلاج.

لم يكن الأمر كما توقّع الجميع، فالعملية جرى تنسيقٌ مسبقٌ لها مع مجموعة من الأطراف، ما أفقدها عنصر المفاجأة، وجعلها تتم بلا خسائر تقريباً. إيران حاولت بهذا التحرك المدروس حفظ ماء وجهها وإسكات من يقولون إنها تخشى المواجهة. كان التحرّك المدروس يتمثل في «ردّ امن»، لا يثير غضباً واسعاً ولا يجرّ الدولة، التي لا تنقصها التعقيدات الاقتصادية ولا السياسية، لمواجهةٍ هي ليست على استعداد لها.

ردود الفعل على العملية انقسمت وفق منطلقات المتابعين، فكان الإحباط من نصيب من كانوا يتمنّون مواجهةً أكثر جدّية. كان أولئك يطلّقون أن خيارات طهران تنحصر في خيارَي الردّ وعدمه، وكانوا برون، وفقاً لذلك، أنه، وبسبب حرج كبير أنتجه هجوم دمشق، لا مفرّ من ردّ إيراني. ما فات هؤلاء أن إيران ابتكرت، منذ وقت طويل، طريقاً ثالثاً، وهو ما سميناه الرد بأمان. هجمات السبت التي كانت دعائية بشكل كاف لإحداث جلبة واسعة وحالة من التأهب الأمني الإقليمي، أوضح مثال لذلك الردّ الآمن، مثل هذا التحرّك آمن، لأن أقصى ما يمكن أن ينتجه إدانات غربية ودعوة إلى مزيد من العقوبات الاقتصادية.

على الرغم من ظهور حجم «الهجوم» الحقيقي وإعلان إيران عبر وزير خارجيتها حسين أمير عبد اللهيان أن عملية الرد انتهت، إلا أن صور رموز النظام الإيراني ظلت محلّ احتفاء في صفحات التواصل الاجتماعي عند من كان يرى في المواجهة دولية مباشرة، لإشغالها في صراع معقّد قادر على عرقلة محاولاتها التمدّد والسيطرة على المنطقة.

وكان هناك متحمّسون كثيرون، متأثرون بالعدوان وبالجرائم الإسرائيلية، التي تمرّ من دون عقاب في قطاع غزة ومستمرّة تحت نظر العالم. وكان أولئك يرون أن مثل هذه الضربة، وبغض النظر عمن وراءها، يمكن أن تحقّق نوعاً من الثأر، الذي قد يمثل ردّاً متواضعاً على مقتل عشرات الآف من المدنيين وتهديد حياة أكثر من مليون شخص بالجوع أو بفقدان العلاج.

لم يكن الأمر كما توقّع الجميع، فالعملية جرى تنسيقٌ مسبقٌ لها مع مجموعة من الأطراف، ما أفقدها عنصر المفاجأة، وجعلها تتم بلا خسائر تقريباً. إيران حاولت بهذا التحرك المدروس حفظ ماء وجهها وإسكات من يقولون إنها تخشى المواجهة. كان التحرّك المدروس يتمثل في «ردّ امن»، لا يثير غضباً واسعاً ولا يجرّ الدولة، التي لا تنقصها التعقيدات الاقتصادية ولا السياسية، لمواجهةٍ هي ليست على استعداد لها.

> لا أحد من الفاعلين يرغب في تعميق فوضى المنطقة

ردود الفعل على العملية انقسمت وفق منطلقات المتابعين، فكان الإحباط من نصيب من كانوا يتمنّون مواجهةً أكثر جدّية. كان أولئك يطلّقون أن خيارات طهران تنحصر في خيارَي الردّ وعدمه، وكانوا برون، وفقاً لذلك، أنه، وبسبب حرج كبير أنتجه هجوم دمشق، لا مفرّ من ردّ إيراني. ما فات هؤلاء أن إيران ابتكرت، منذ وقت طويل، طريقاً ثالثاً، وهو ما سميناه الرد بأمان. هجمات السبت التي كانت دعائية بشكل كاف لإحداث جلبة واسعة وحالة من التأهب الأمني الإقليمي، أوضح مثال لذلك الردّ الآمن، مثل هذا التحرّك آمن، لأن أقصى ما يمكن أن ينتجه إدانات غربية ودعوة إلى مزيد من العقوبات الاقتصادية.

على الرغم من ظهور حجم «الهجوم» الحقيقي وإعلان إيران عبر وزير خارجيتها حسين أمير عبد اللهيان أن عملية الرد انتهت، إلا أن صور رموز النظام الإيراني ظلت محلّ احتفاء في صفحات التواصل الاجتماعي عند من كان يرى في المواجهة دولية مباشرة، لإشغالها في صراع معقّد قادر على عرقلة محاولاتها التمدّد والسيطرة على المنطقة.

الشرق الأوسط: معارك الردود الآمنة

هدى الفاتح

لا أحبذ في العادة استخدام مصطلح «الشرق الأوسط» الاستشراقي غامض الدلالة، وأفضل استخدام المشرق العربي أو العالم العربي. ولكن لا مفرّ، في بعض الأحيان، من استخدام هذا المصطلح حينما نتطرّق إلى أطراف غير عربية، كما الحديث عن التجاذبات الإيرانية الإسرائيلية، تابع الملايين في المنطقة، ليلة السبت الماضي، الأخبار عن هجوم إيراني بعشرات الصواريخ والطائرات بدون طيّار، التي توجهت لضرب أهداف مختارة داخل الكيان الصهيوني. كان الجميع يأمل في أن تسدّد إيران ضربةً ناجحة في عمق كيان الاحتلال. ولكل طرف أسبابه التي تدفعه إلى هذا الأمل، فمناصرو إيران واصدقاؤها كانوا يرون أن تحرّكاً كهذا سيجعل البلد يستعيد هيبته، خصوصاً بعد أن أصبح محلّ تندّر بعد مرور أسبوعين على استهداف مبانيه الدبلوماسية في دمشق وقتل قادة عسكريين منه، دون أن ينتج ذلك أي رد فعل.

كان أن تغيير معطيَيْن أمميين في ليبيا أو استقالتهما لا يعني كثيراً بالنسبة للعمل السياسي الداخلي، بقدر ما يعني لدول مهتمة بالملف الليبي، ترعى مصالحها، وتعمل على تحقيق أهدافها، بغض النظر عن الاستقرار السياسي الداخلي من عدمه. والشواهد على ذلك كثيرة وحية في الأزمة الليبية التي وصل عدد المبعوثين الأمميين فيها منذ 2011 إلى أكثر من ثمانية، وما زالت لم تستطع أن تجدد أجسامها التشريعية، بعد نجاح تجربتها الأولى في المؤتمر الوطني العام في 2012.

عوداً على بدء. الحوار الوطني أنجح الطرق في حل الأزمة السياسية في البلاد على المديين، القريب والبعيد، وأن يكون وطنياً خالصاً في التكوين والمنشأ والإطار العام، على أن تكون البعثة الأممية داعمة أي اتفاق يصل إليه الليبيون، لا حَكَماً وتدخّل فيها، وإن كان أسدل الستار عليها بطريقة غير مباشرة في هذه الإحاطة، بل وحتى ما كان قبلها. عموماً، تحمل هذه

زيلنسكي متسوّلاً بعد الهجوم الإيراني

زياد بركات

لم يكن الرئيس الأوكراني فولوديمير زيلينسكي في أفضل أحواله، ليلة السبت الماضي، وهو يتابع ردّ فعل حلفائه في الغرب، وطائراته تحلّق في منطقة الشرق الأوسط، وتتصدّى لسيل جارف من الطائرات المسيّرة والصواريخ الباليستية التي أطلقتها إيران، في أول هجماتٍ تنطلق من أراضيها على الإطلاق، وتستهدف إسرائيل. تبدو أسئلة زيلينسكي للوهلة الأولى مشروعة، فلماذا يكرّس الغرب، وفي مقدّمته الولايات المتحدة، جهوده العسكرية والدبلوماسية كلها لتجنيب إسرائيل ردّاً إيرانياً عقابياً ولا يفعل ذلك مع بلاده؟ ولماذا تنتهاوى وليس هو؟ لماذا تزوّد واشنطن تل أبيب بأحدث الأسلحة، ومن بينها طائرات إف - 35، وتقي

ماذا لو حصلت الحرب بين إيران وإسرائيل؟

عزام أمين ولوران لامبيرت

خابَ أملُ البعض من عدم دخول إيران في حربٍ معلنةٍ وشاملةٍ ضدّ إسرائيل بعد أن سارعت طهران، عبر بعثتها في الأمم المتحدة، إلى الإعلان أنّه مع إطلاق 420 مسيّرة وصاروخ كروز وباليستي «يمكن اعتبار الأمر منتهياً»، وأنّ هذا القصف هو «إجراء دفاعي»، وليس هجوماً أو إعلان حرب. وهدّدت إيران على لسان نائب وزير خارجيتها للشؤون السياسية، علي باقري كني، الاثنين الفائت، أن ردّها على إسرائيل سيكون مباشراً، وبدون انتظار، إذا تجرّأت إسرائيل وارتكبت خطأً جديداً. هذا يعني أنّ ما فعلته إيران في ردّها على الغارة الإسرائيلية على القنصلية الإيرانية في دمشق، واغتيال 16 شخصية، بينهم اثنان من قادة الحرس الثوري، ليس أكثر من رسالة رمزية تُوجّهها، من جهةٍ لأذرعها في المنطقة للحفاظ على مصداقيتها وعلى ماء الوجه، ومن جهةٍ ثانية إلى إسرائيل، ومن خلفها شركائها في الغرب، أنّها لاعب إقليمي قادر على الردّ.

ما فعلته إسرائيل في هجومها على القنصلية الإيرانية في دمشق هو جريمة وخرق صارخ لاتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية، التي انعقدت في مؤتمر الأمم المتحدة في إبريل/ نيسان من عام 1961. وكان سبباً مشروعاً لإيران للدخول في حربٍ مفتوحةٍ وشاملةٍ مع إسرائيل بحجّة الدفاع عن نفسها ضدّ عدوان خارجي، ولكنها لا تريد ذلك، وهي تعلم جيّداً أنّ المواجهة الشاملة والمباشرة ليست في مصلحتها، وقد تجرّدها من النفوذ الإقليمي والهيمنة على بعض الدول العربية، كما أنّ ميزان القوى العسكري والدولي يميل لصالح إسرائيل، لذلك كان ردّها تكتيكياً محكوماً بحساباتٍ براغماتية لا يتناسب مع حجم خسارتها جرّاء قصف قنصليتها، بحيث لا تعطي لنتنياهو سبباً «مشروعاً» لمهاجمتها وإطالة أمد الحرب.

وبناءً عليه، فإنّ عدداً صغيراً جدّاً من الصواريخ والمسيّرات، استطاعت اختراق الدفاعات الجوية الأميركية والإنكليزية والفرنسية والقبّة الحديدية الإسرائيلية والوصول لأهدافها.

بعد رسائلِ التهدئة الإيرانية السريعة، خابَ أمل بعض المراقبين في حصول حربٍ شاملة بين إيران وإسرائيل، كما خابَ أملُ بنيامين نتنياهو في دفع طهران ما أمكن إلى التصعيدِ وتوريط واشنطن معها في هذه الحرب، فهو يعلم أنّها مخرجه الوحيد من مأزق جريمة الإبادة الجماعية التي يرتكبها جيشه بحق غزّة وأهلها، ولم تحقّق له أيّ نجاح حتى الآن في نظر المجتمع الإسرائيلي. وهو يعلم أنّ نصف دول أوروبا الغربية، وخاصة اللاتينية والدول الاسكندنافية، تُطالب إسرائيل منذ أشهر بوقف هجومها الإجرامي على غزّة والسماح بدخول المساعدات الغذائية.

> أيّة حرب بين إيران وإسرائيل ستكون بمثابة كارثة إنسانية غير مسبوقة على شعوب المنطقة
>
> لا تملك إيران حالياً أيّة وسيلة لهزيمة إسرائيل المدعومة من أقوى الدول الغربية

أمّا النصف الآخر من الدول الأوروبية، الأنغلوسكسونية من حيث الثقافة، أو التي يقودها يمين شعبَوي، فلم تقل عمومًا شيئًا يُذكر عن المذابح الصارخة التي يرتكبها الجيش الإسرائيلي في غزّة، ولكنها بدأت تشعر بالقلق الشديد بشأن عدم توصّل الجيش الإسرائيلي إلى نتائج ملموسة، وتجاه الانتقادات المتزايدة لها من قبل الرأي العام واتهامها بالتواطؤ، الضمني والصريح، في جريمة الإبادة الجماعية التي أقرها القانون الدولي منذ نصف قرن وما يخضع لها من تبعاتٍ قانونية.

وبشكل خاص حين أعلن الاتحاد الأوروبي، العالق بين هذين الموقفين، قبل شهر أنّ إسرائيل لا تسمح بدخول ما يكفي من الغذاء إلى غزّة، وأنها تستخدم الجوع «كسلاح حرب»، طبعاً دون الإشارة إلى طبيعة الإبادة الجماعية للإجراءات الإسرائيلية، مع العلم أنّ ما يحصل على أرض الواقع في غزّة يتوافق تماما مع الفقرة (ج) من المادة الثانية من اتفاقية عام 1948 بشأن «منع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها»: إخضاع أعضاء جماعة (قومية أو إثنية أو عنصرية أو دينية)، عمداً، لظروف معيشية يُراد بها تدميرها المادي، كلّياً أو جزئياً، وهو ما يحصل فعلياً في غزّة. بعض المناهضين لإيران ولإسرائيل معاً في منطقة الشرق الأوسط كان يأمل ويرغب في حصول حربٍ شاملةٍ بينهما، من مبدأ «عدوان يتصارعان، لننتهي من واحد منهما». ولكن ماذا لو حصلت فعلاً هذه الحرب بين إيران وإسرائيل؟

يجب أن ندرك أنّها ستكون بمثابةِ كارثة إنسانية غير مسبوقة على شعوب المنطقة، وخاصة على الفئات الاجتماعية الأكثر ضعفاً. إنّ المواجهة المسلحة الشاملة بين إيران وإسرائيل، التي تمتلك ما لا يقل عن مائتي رأس نووي والمستعدّة لارتكاب أيّة مذبحة أُخرى للحصول على مظهرٍ من مظاهر النصر، كانت لتسبّب الموتَ والفوضى، ليس فقط في إيران، بل في مختلف أنحاء منطقة الشرق الأوسط. فإسرائيل لن تهاجم إيران فحسب، بل ستهاجم أيضًا آلاف الأهداف في جميع أنحاء لبنان وسورية والعراق واليمن ومياه الخليج العربي، حيث تمرّ ناقلات النفط الإيرانية. وفي جميع هذه البلدان، وحتى في الأردن الموجود في وسط هذه المعمعة، كان من الممكن تسجيل أضرار بشرية ومادية هائلة، لأنّ جيش الكيان الصهيوني، الذي تسيطر عليه حكومة يمين متطرف تطغى عليها نزعة نرجسية تدميرية إجرامية، يريد التدمير الشامل، وليس الدقة في إصابة الأهداف العسكرية، وهذا أعلنه صراحةً المتحدث باسمه، دانييل هاغاري.

سيعمّ دمارٌ شاملٌ في المنطقة، بما فيها إسرائيل، يطاول الحجر والبشر، جنون تدميري للمباني السكنية في القرى والمدن وللبنية التحتية الحيوية، بما في ذلك النقل والصحة والتعليم والمياه والاتصالات، وربّما في غضون شهرين سيدخل الشرق الأوسط بأكمله في حالة من الركود الاقتصادي الحاد والانهيار السريع، وما يتبعها من نزوح عشرات الملايين من البشر هرباً من الجوع أو من القتال، ومحاولة مئات الآلاف منهم للوصول إلى تركيا وأوروبا، حيث لا أحد يريد المزيد من موجات الهجرة من الشرق الأوسط. إنّ دول أوروبا اليوم منقسمة على نفسها بشأن تعاملها مع جريمة الإبادة الجماعية في غزّة، ولكنها للأسف متحدة بشأن الرفض القاطع لمزيدٍ من موجات الهجرة من الشرق الأوسط.

لا تملك إيران حاليا أيّة وسيلة لهزيمةِ إسرائيل المدعومة من أقوى الدول الغربية، وقد كشف هجومها الصاروخي عن «وجود أوركسترا فاعلة في المنطقة، للدفاع عن إسرائيل» تشارك فيها بلدان عربية للأسف. في أحسن الأحوال، يمكن لإيران أن تصمد وتقاوم الحرب لعدّة سنوات على أمل أن تصبح مكلفة للغاية بالنسبة للمعتدي وتجبره على التوقف والتراجع، وستعتبر ذلك نصراً كبيراً، مثل ما فعله الحوثيون أو طالبان ضدّ القوى التقليدية الأكثر قوة، ولكن بأي ثمن؟

تشكل حالتي اليمن وأفغانستان اليوم من بين أسوأ الأزمات الإنسانية المعروفة في العالم، بعد غزّة مباشرةً، وهما موطن لملايين النازحين داخلياً، والذين غالبا ما يُعانون من الجوع والحرمان وتفشّي الأمراض. ففي عام 2023، كان هناك حوالى 21,6 مليون يمني يحتاجون إلى شكلٍ من أشكال المساعدة الإنسانية السريعة، كما أكد تقرير صادر عن شبكة نظام الإنذار المبكر بالمجاعة «FEWS NET» أنّ اليمن سيظل بحلول أكتوبر/ تشرين الأوّل 2024 الدولة الأكثر احتياجاً للمساعدات الإنسانية، مع استمرار تفاقم أزمة انعدام الأمن الغذائي دون أيّ بوادر تحسّن. أما في أفغانستان، فخمسة وتسعون في المائة من الناس لا يملكون طعامًا كافيًا، و6,6 ملايين شخص معرّضون لخطر المجاعة، في حين يعاني مليون طفل من سوء التغذية الحاد، بحسب تقارير الصليب الأحمر الدولي.

مهما كانت مواقفنا السياسية تجاه طهران وتل أبيب، علينا أن ندرك أنّ عِداء إيران لإسرائيل ليس من أجل فلسطين ولا الفلسطينيين، وأنّ الصراع بينهما ناتج عن المنافسة على النفوذ والمصالح الإقليمية، وعلينا أن نرى في غياب التصعيد والحرب الشاملة بينهما فرصة لشعوب المنطقة وليس العكس، وحدهم أعداء هذه الشعوب من يتمنون هذه الحرب. ولا بديل لنا عن متابعة الضغوط الشعبية المتزايدة (المظاهرات، حركة المقاطعة الاقتصادية، جمعيات المساندة...)، سواء في المنطقة العربية أو في دول العالم الغربي، لوقف جريمة حرب الإبادة الجماعية ضد غزة في أسرع وقت ممكن، ومساندة الشعب الفلسطيني في نضاله لنيل حقوقه والاعتراف بدولة فلسطينية كما تنص عليه المواثيق الدولية وقرارات مجلس الأمن.

(أستاذان باحثان في معهد الدوحة للدراسات العليا)

في الحديث عن المغارب... مسانداً عبد القادر الشاوي

محمد سي بشير

قرأتُ، مرّات، مقالات الكاتب الأديب عبد القادر الشاوي في «العربي الجديد»، وفهمت منها، للإنصاف، أن المغاربيين، لينطلقوا إلى المستقبل، عليهم تجاوز عقبات اللُّغة، بداية، ومنها عتبة عبارة المغرب العربي التي أضحت ثقيلة على وعي المغاربيين وعقولهم، بسبب ما تلوكه الألسنة بشأن معنى العبارة ودلالاتها، بدون فهم، في الظرف الحالي العصيب. ولهذا اخترت أن أكتب عن مسائل حيوية يمكن أن تضيف إلى كلامه وتسهّل علينا تصوُّر ذلك المستقبل بدون الأخذ والرد في إشكالات محسومة تاريخيا، ولا مناص من التفكير، بدلا من ذلك، في تحدّيات المستقبل، وكيف يجب أن تُرفع بصفة جماعية، للنّجاح في تبوُّء مكانة أفضل وأكبر، في المنطقة وفي العالم، وتجسيد مشروع العروج الحضاري، بتعبير مالك بن نبي، رحمه الله.

تأتي هذه المقالة، إذن، في إطار توضيح بعض أمور ملتبسة في عقل ساكنة شمال أفريقيا ووعيها، بشأن ثلاث إشكاليات حيويّة: الجغرافيا والهويّة والتُّراث المشترك الذي تتصارع بشأنه، منذ فترة، قنوات من المغرب والجزائر، وطاول كلّ شيء من الكسكسي إلى اللباس التقليدي مرورا بمسلّمات جغرافية، رموز تاريخية وفضاءات هويّاتية كانت، إلى أمس قريب، قواسم مشتركة، ولا يمتدُّ إليها الشكّ، لا من هؤلاء ولا من أولئك.

لننطلق، بداية، من الجغرافيا لإقرار أنّ الدولة الوستفالية التي تُعرف بالدولة القومية أو الدولة الأمّة، من صنع متغيّراتٍ كثيرة متراكمة، ولها سياقات تطوُّر في التاريخ عرفته كل الدُّول، وليس منها من يمكنها الادّعاء، اليوم، أنّها تكوّنت، منذ فجر التاريخ، بالحدود الحالية، وبمكوّنات الهويّة وما يتفرّع عنها بالشكل الذي يُوجد لديها، الآن، وهي الحقيقة التي يجب أن ننطلق منها لبناء إدراكنا للدولة المستقلّة في منطقتنا، والتي يجب أن نعترف بها، وأن لا نستخدم أيّا من الحجج أو الأسباب لنزع قدسية هذه الجغرافيا، وما يتعلّق بها من حدود، حتى في أشدّ حالات الاختلاف أو التوتّر السياسي في زمن الأزمات والصراعات.

نتحدّث عن الجغرافيا، هنا، لأنّ بعضهم يستغلُّ فترة التوتُّر لتصعيد إشكالات باستقلال الدّولة التي تصارعها تلك المناطق تكون قد اعترفت بكل ما نتج من الماضي الاستعماري.

> تتصارع مواقع مغربية وجزائرية على من يملك سبق اختراع حلويات، أطباق، ألبسة رجالية ونسائية إضافة إلى أسماء الأماكن، ومروراً بمسائل خاصة بالفن، في ضجيج أضحى غير مقبول
>
> شباب بلداننا ينتظرون عملاً وحياة كريمة ومساراً تشاركياً في فضاء الإبداع العالمي، ومناط ذلك كلّه تجسيد ما تقدّم من حُلُم الوحدة والابتعاد عن حروب طواحين الهواء

ومن ناحية أخرى، و بخصوص منطقتنا المغاربية، هل يمكن استخدام سياقات تاريخية تحرّكت فيها الحدود، ورُسمت فيها الكثير من الجغرافيات للمطالبة بمناطق محدّدة أو استدعاء ذلك التاريخ للمطالبة بما يحمل مسمّى الحدود الحقّة؟ عرفت منطقتنا، للعلم ولإسكات أبواق تسمّي نفسها علماء ودكاترة في التّاريخ، من هنا وهناك، في عهود تاريخية ماضية، دولا تمدّدت إلى ما هو أبعد من الحدود الحالية، مثل الدّولة المرّينية، الزيرية، الرستمية، إضافة إلى مثال دولتي الموحّدين أو المرابطين، من قبل، وغطّت فضاءات المنطقة بأكملها، أقلّ أو أكثر، بين عهد تاريخي وآخر، فهل يمكن الرجوع إلى تلك المراحل التاريخية لرسم حدود ما أو تسجيل مطالبات ما، بل والادّعاء، من جهلة هذه الجهة أو تلك، من منطقتنا، بهذه الحقائق، ارتكازا على هذه السياقات بما اندثر في التاريخ وأضحى حكاية تُحكى وماضيا طوته السُّنون؟

هناك إشكالية الهويّة التي نتوقّف عندها للنّظر بعين العارف بتاريخ والأعراف والتقاليد ومكوّناتهما فضلا عن اللُّغات، اللهجات والسرد الهوياتي كلّه، للحديث عن صراع مفرّغ من أيّ قصد، خلفيّات كانت أو توجّها حيث لا ندري الدافع وراء إثارة مسائل جرى حسمها منذ قرون بالانتماء إلى دائرة حضارية ومعرفية واحدة والانصهار في تجارب تاريخية ذاتها، من دون إغفال المصاهرات واختلاط المجتمعات، لتصنع منّا أمّة واحدة لا يمكنها الاختلاف على قشور يعرف الجميع أنّ مثيراتها جهاتٌ، إمّا جاهلة ولها أهداف مشبوهة أو متلاعبة بتوتُّرات سياسية، لتوجد بيئة مغايرة لمسلّماتٍ أصبحت تمثّل ذواتنا ولا انفكاك لنا عنها ألبتّة. هل يُعقل أن نثير، بالنتيجة، إشكالاتٍ خاصّة بالانتماء إلى منطقة واحدة أوجدتها كيمياء الجغرافيا والتاريخ، ومزجت بين مكوّنات ساكنة المنطقة، حتّى لا تكاد تفرّق بين الجزائري والتُّونسي أو بين الجزائري والمغربي، على الأصعدة كافة، حتّى مع الاعتراف بوجود مشكلاتٍ سياسيّة في دائرة السياسة العليا تُدار من صانعي القرار في البلدان في المنطقة؟ نصل إلى إشكالية التّراث المشترك المتفرّع، في الثقافة والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، من الهويّة الجامعة، حيث تتصارع مواقع مغربية وجزائرية على من يملك سبق اختراع حلويات، أطباق، ألبسة رجالية ونسائية إضافة إلى أسماء الأماكن، ومرورا بمسائل خاصة بالفن، في ضجيج أضحى غير مقبول، بل لعب أطفال حيث بلغ درجة أضحكت وتضحك علينا العالم كما جرى في قضية الزّلّيج أو الرسم (الشكل الهندسي) الذي حمله قميص رياضي للنُّخبة الجزائرية لكرة القدم، والذي وصل إلى حدّ إيداع شكوى لدى شركة رياضية عالمية (أديداس، مصمّمة القميص) تدّعي أنّ المغرب صاحبة الرسم، في حين أنّه موجود منذ عهد العثمانيين في مساجد، حمّامات الجزائر وبيوتها، من شرقها إلى غربها، منتقّلا إلى الغرب، حينا، وإلى الشرق، أحياناً أخرى، في المغرب وتونس، من دون أن تثير المسألة كلّ هذا الضجيج أو الخلاف.

وكانت قضية الكسكسي ومن يملك سبق اختراع مكوّناته وتسميته بذلك الاسم قد تمّت تسويتها، بالاتفاق بين بلدان المنطقة، باعتباره تراثا لا ماديا مشتركا لدى «اليونسكو». ولكن الجميع، في المغرب والجزائر، نسي تلك المرجعية في التعامل مع التّراث المشترك لتصبح القضيّة مناكفة صبيانية، حيث كان يمكن لكثير من ذلك التُّراث، أيّا كانت طبيعته، أن يصبح عالميا باسم المنطقة، وليس محلّ منازعات تلوكها ألسنة صانعي المحتوى من كلّ حدب وصوب بعيدا عن الهويّة الجامعة، وتداعيات ذلك كله على المخيال الجمعي للمنطقة التي عاشت تحت نير الظُّلم الاستعماري والاستيطاني، وتعاونت، على مرّ التاريخ، لإخراج الأجنبي، ولكنها لم تصنع لنفسها فضاءات تعاون وتعايش حقيقيين.

ربما يلاحظ قارئ هذه المقالة تجنُّب كاتبها استخدام الاسم الجغرافي المعتاد للمنطقة، وهو المغرب العربي أو المغرب الكبير. ولم يكن ذلك عن غفلة بل تصميم مسبق، لأنّ ثمة من يستغلّ الاسم الجغرافي ليقول إنّ المنطقة، بحدودها الحقّة، يجب أن تعود إلى ماضيها من التمدُّد المزعوم لدولة بعينها باستقطاع، زعما، مناطق كثيرة مما يُطلق عليه الصّحراء الشرقية، مدن ساحلية محدّدة، إضافة إلى مناطق شاسعة قد تغطّي، إذا تتبّعنا تلك المزاعم، المنطقة، وتبتعد بالحدود الحقّة نحو الجنوب إلى موريتانيا غربا، وإلى الساحل في أقصى الجنوب، بل إلى أبعد من ذلك، لو قرأنا الخريطة التي تحدّث عنها بعضهم بأنّها حدود تلك الدولة.

ويمكن للقارئ الكريم أن يعود إلى عشرات من مقالاتي في «العربي الجديد» أو في غيرها من الصحف والمجلّات، كما يمكنه أن يعود إلى مداخلاتي في وسائل الإعلام وفي الملتقيات العلمية، ليعرف كم أنا مهووس بالمنطقة وبوجوب سيرها نحو وحدتها. ولذلك لن يُستخدم اسم المغرب العربي أو المغرب الكبير إلا في حالة تجسيد الاتحاد المغاربي وإلا، فإنّ اسم المغارب، وفق اقتراح عبد القادر الشاوي، سيكون، دوما، الاسم الذي سأطلقه غضبا، من ناحية، من تلك الإشكالات التي لم نعرف كيف نعالجها بهدوء فيما بيننا ومن دون تدخّل أو انخراط أي أجنبي عن المنطقة أيّا كان.

و من ناحية أخرى، إحقاقا للحقّ الذي أراه في أنّ الجغرافيا والهويّة والتُّراث المشترك خطوطٌ حمراء يجب ألّا ننخرط في الخلاف بشأنها لنبقي للأجيال القادمة مخيالاً جمعيا يمكّننا من البناء عليه، عندما نقضي على المشكلات السياسية، من تجسيد حلمنا الكبير باتحاد مغاربي حقيقي تخلو فيه الحدود كلّها، الموروثة والحقّة، ونعيش، كلُّنا، بهويّة واحدة، مواطنين لدولة واحدة تحمل اسم منطقتنا الموحّدة.

لا يمكن إنهاء المقالة دون الإشارة إلى واجب التغيير الديمقراطي وإبعاد المنطقة عن الانخراط في التطبيع مع أعداء الأمّة، كما يجب أن لا ننسى واجب إخضاع مستعمر الأمس لواجب الاعتراف، الاعتذار والتعويض عن الفترة الاستعمارية/ الاستيطانية، وهي شروط تعيد لنا مخيالنا الجمعي، وتذكّرنا بأنّ ذاكرتنا هي محفّز القضاء عن التناول الصبياني لتلك الإشكالات التي تحدّثنا عنها، الجغرافيا والهوية والتراث المشترك.

نذكّر أبناء المنطقة، فقط، بأنّ شباب بلداننا ينتظرون عملا وحياة كريمة ومسارا تشاركيا في فضاء الإبداع العالمي، ومناط ذلك كلّه تجسيد ما تقدّم من حُلُم الوحدة والابتعاد عن حروب طواحين الهواء التي، للذّكر، وهي مسلّمة، لا يمكن لأحد الاختلاف بشأنها، رواية كتبها الإسباني سرفانتيس عندما كان أسيراً في الجزائر.

(باحث جامعي جزائري)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads